

جدلية الأرض والاستبعاد في رواية الفراشات والغيلان لعز الدين جلاوي —دراسة
ثقافية—

The dialectic of land and exclusion in the novel el farachat wa el ghilen
by Izz al-Din Jalawji - a cultural study -



أشابوب ذهبية*

جامعة محمد بوقرة بومرداس — مخبر التمثيلات الثقافية والفكرية جامعة تيزي وزو

d.achaboub@univ-boumerdes.dz

تاريخ الاستلام: 2025/02/04 تاريخ القبول 2025/05/05 تاريخ النشر 2025/06/03



ملخص:

تطرقت رواية "الفراشات والغيلان" إلى علاقة الفرد بأرضه والحنين إليه كلما ابتعد عنه، ولم يتوقف عند هذه النقطة بل تجاوزها إلى سبب هجرة الأرض وما يترتب عن ذلك من ألم، فالاستعمار يستعمل كل أنواع القوة والتسلط لقهر أهل الأرض وتشريدهم قصد الاستلاء على ممتلكاتهم واستوطان أرضهم، وهنا جلاوي كان مباشرا في الحديث عن هذا القهر الذي تركته الكولونيالية في نفوس البشر خاصة الأطفال الذين يتوقون إلى النمو على أرض حلمهم، الأرض التي رأت عيونهم لأول مرة فيها الحياة، لذا الرواية كانت جدلية بين الحلم والوطن، والتوق إلى العودة إليه.

الكلمات المفتاحية:

الحلم، الأرض، الذات، الاستعمار، القهر، الطفل

Abstract: The novel "Elfarachet wa Elghilen" addresses the relationship of the individual with his land and his desire to return each time he moves away from it. He does not stop there, but goes beyond to. The reason for his removal from his lands and the pain that results.

* المؤلف المراسل

Colonialism uses all kinds of force and domination to oppress the people of the country and displace them with the aim of seizing their properties and settling on their lands. Here, "Jalawji" spoke candidly about this oppression that colonialism left in the souls of people, especially children who aspire to grow up in the country of their dreams, the land where their eyes first saw life. Thus, the novel was a dialectic between the dream and the homeland, and the desire to return there.

key words: Dream, land, self, colonialism, oppression, children

مقدمة:

أتى عنوان الرواية ثنائية متناقضة، فالعنوان "الفراشات والغيلان" يجمع بين رمز الخير والشر، غير أنّ هذه الثنائية تتلاشى تدريجيًا إلى أن يبقى رمز الخير الذي تمثله "الفراشات" يسيّر أحداث الرواية، هذا الرمز المنكسر جراء الترحال بعد الكارثة التي أحدثها الشر، يُبقى الرعب يرافق "الفراشات" في كلّ مكان، هذا الرعب الذي أصبح -عبر السرد- بديل "الغيلان" في رمزية الشر، والذي نقله لنا السارد "محمد" الطفل البطل، فرغم سنّه عرف حبّ الوطن الذي سرعان ما نما بين ضلوعه ليتحول إلى حلم يكاد يتلاشى، لكنّه بفعل التشبث وتقديس الأرض "الأمّ" ينمو ويكبر، كلّ هذا نقله لنا جلاوي عبر لغة جميلة، واضحة، مباشرة لا تحتاج إلى التكلف والتنميق، فهو ينقل لنا مأساة شعب فقد الأهل والوطن، لهذا لا يحتاج إلى لغة متصنعة.

يعيش القارئ الأحداث وهو يتصفح الرواية، هذه الأرض التي عبّر عنها جلاوي "بكل شيء" فيتساءل "ماذا نساوي بدون أرضنا؟" نحن لا شيء، "هذه الأرض منها خلقوا وإليها يعودون"، من هنا كانت إشكالية هذه الورقة البحثية التي أتت كالاتي: لماذا هذه الجدليات القائمة على "الأرض والهجران" "القهر والحلم" في الرواية، في حين يمكن أن تُبنى الجدليات على أمور سياسية، اقتصادية، اجتماعية ... خاصة وأنّ الوقت وقت حرب بين البلدين؟.

1. دلالة الوطن وتمثلاتها في الرواية:

يحمل النص في طياته ثنائيات متناقضة، فانطلاقاً من العنوان تسير شبكة السرد على هذه الشاكلة، فاعتمد جلاوي في هذا الرواية على الأضداد ابتداء من العتبة الأولى فنجد: الغيلان المهاجمة/ يقابلها الطفل الذي يعانق دميته، جمال العمة/ الوحوش، الربيع في القرية/ المطر والبرد والثلوج في المنفى، الحياة السعيدة مع الأهل/ الفرع والخوف والاعتراب، الحلم/ التعاسة والقهر.

1.1. تمثيلات الأرض:

اعتمد الطفل في نقل مأساته على عملية التذكر والاسترجاع أو ما يسمى "بالمفارقات الزمنية أو التناورات الزمنية"، ولم يكن ليتذكر أرضه وقريته وأهله الذين أبيدوا لو لا حبه لهم ولو لا الجرح الغائر في نفسيته. فقدمه لنا الروائي في صورة بطل ناضج قبل الأوان، ولعلّ ما جعله يظهر واعياً، هذه العلاقة التي تربطه بأرض قريته التي عاش عليها وتنفس هوائها، هذه الأرض المقدسة منذ الأزل فهي مصدر الخلق، ومرجعه فإذا عدنا إلى القرآن الكريم وجدناها فراشا في قوله تعالى: «وجعل لكم الأرض فراشا...»¹، بهذا لم يترك لنا مجالاً للشك أنّها مقوم أساسي في حياة الفرد ووجوده، إلى أن عبّر عنها الفرد بـ"مسقط رأسه"، فالأرض مصدره ومرجعه وجذوره، فإن أراد الفرد الإشارة إلى أصله أشار إلى منطقة معينة لتحديد انتمائه.

كما ذكرت الأرض في مواضع عدّة في القرآن الكريم إلى جانب الآية الأولى التي أوردناها نضيف قوله تعالى: «هو الذي جعل لكم الأرض ذلّولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور»²، وهي إشارة على أنّ الله عزّ وجلّ جعل لنا الأرض سهلة، صالحة يمكن الاستقرار عليها، فالأرض مرادفة للوطن، إذ ما يجعل من الوطن وطناً أرضه، بهذا فالأرض تجاوزت دلالتها عند الفرد من مجرد تراب إلى مسألة الهوية والتعبير عن الانتماء والوجود، «فمنذ أن خلق هذا الكون ارتبط

الإنسان ارتباطا كاملا بالأرض عبر علاقة لا انفصال فيها ولا انقطاع فهي كلّ شيء في حياته»³ والعيش بعيدا عن "مسقط رأسه" سميّ اغترابا، و أقسى ما يحدث للإنسان هو الابتعاد عن منبته خاصة إذا حدث قسرا، هذا ما عبر عنه الشاب "سليمان" ابن خالة البطل محمد في تعبيره عن غضبه إزاء "الغزاة"، "الغيلان" التي أرادت نفيعهم وتشريدهم في كلّ البقاع، غير أنّ الشباب وعلى رأسهم "سليمان" فضلوا البقاء والمحاربة من أجل وطنهم يقول: «...نموت جميعا ولا نترك أرضنا»⁴ وهي جملة تدل على التمسك بالوطن وعدم الرضوخ للمستعمر. كانت دلالة الأرض منذ القدم تعني: الأم والطمأنينة، فمنذ الحضارات الأولى كانت العلاقة بين الفرد والأرض علاقة وطيدة، تكامل. ونشوب الحروب الاستعمارية والتوسعية لم تكن إلّا دليلا على ذلك، والدفاع عن الأرض هو دفاع عن الشرف، دفاع عن الوجود، وكلّ محاولة للتعبير عن الأرض سيفضي إلى إثبات هذه العلاقة. بذا «لا بد من القول إنّ جميع تلك الرموز التي تتداخل وتأتي مكملة لبعضها البعض، إنّما تدل على بقاء الصورة الأولية للأرض - الأم»⁵، هذه الأم التي تحتضن صغارها كلما احتاجوا إلى الحنان، وكلّ ابتعاد عنها ابتعاد عن الأمان فيلخص سليمان صورة أرضه في هذا المقطع يقول على لسان محمد: «أرض كوسوفا كما قال أرضنا...

من تربتها نبتنا...

من أريجها أينعنا وأزهرنا...

وعليها... فيها يجب أن نموت...

بين شغاف قلبها الدافق ندفن...

وهل نحن أول من مات من أجل هذه الأرض..؟

ولن نكون آخر من يموت طبعاً...

هذه الأرض قادرة على الإنجاب دائما... ولن نكون أقل شأنًا من أجدادنا ...
ولن نترك العار لأبنائنا وأحفادنا ... لا بد أن نقاوم وما سنخسر بعد خسران
الأرض ... الأم ... الثدي ... الحضن ... القلب ... الشريان ... الوريد ... الدم ...
الدم الأحمر الفوار المتدفق ...

النجيع الطاهر الهادر...؟

وهل هناك ما هو أثمن من ذلك وأعز وأغلى؟ وماذا نساوي نحن دون الأرض غير
كتلة لحم بلا جذور ... بلا انتماء ... تتقاذفها الحوادث لتنتهي في مكان ما ... في
زمان ما ... وتنتهي إلى الأبد؟؟؟⁶، هذا الرفض القاطع لمغادرة الديار والأرض،
بمثابة الدفاع عنه، وبرهان على مدى تمسك الكوسوفي بأرضه حدّ الاستشهاد،
لكن سرعان ما يتفق الجميع على المغادرة للحفاظ على العرق الكوسيفي، فتراجع
الأرض إلى المرتبة الثانية ويظهر وجوب الحفاظ على العرق الكوسيفي الذي وجب
عليه العودة يوما ما لاسترجاع الأرض، بهذا يظهر أنّ دلالة العرق أقوى من دلالة
الأرض في المفهوم الانساني، والروح أغلى من الأرض، يقول محمد: «أعطى الشيخ
إشارة الانطلاق فهرع الجميع في صف كبير تاركين قريتهم وأرضهم وديارهم،
ميممين شطر المجهول ... شطر التشرد والضياع»⁷، وهنا يمكن أن نستحضر قول
الشاعر في التعبير عن حنينه إلى أرضه يقول: «ذكرت بلادي فاستلهمت
مدامعي*** لشوقي إلى عهد الصبا المتقادم

حَنَنْتُ إِلَى اَرْضٍ بِهَا اخْضَرَ شَارِبِي*** وَقَطَّعَ عَنِي قَبْلُ عَقْدُ التَّمَائِمِ»⁸.
فالأرض مهما غلت في قلوب أبنائها يمكن هجرانها ما دامت يمكن أن تُسترجع
بعد جيل أو أكثر ما دامت الدماء تسري في عروق أبنائها جيلا بعد جيل.

2.1 القرية:

كان الطفل محمد شديد التفكير بقريته التي تركها وراءه بعد الزحف الذي قام

به الغيلان عليهم يقول: «وعادت بي الذكرى إلى قريتي الصغيرة الآمنة الوديدة»⁹، هذه الذكريات التي لا تفارق ذهنه ولا مخيلته التي تجمع آمنيات بالعودة يوما إليها. كانت القرية الأم المانحة للطمأنينة بين أبنائها، بهذا المفهوم كانت أرضها تُقدس من طرف السكان فهي ليست الأرض بالمعنى اللغوي الجاف بل تعدته إلى التقديس والهوية، وهذا ما عبرت عنه خالة محمد في الحديث عن الشجرة الرامزة لعيد زواجها، فتلك الشجرة جزء من أرض القرية، فإن كان الوطن هو المرجع والمصدر فالقرية لا تقل أهميتها عن ذلك، إذ هي جزء من أرض الوطن، غير أنّ خصوصية القرية تحمل أبعادا غير محدودة، فهي الروح التي تسكن الجسد والماهيات الراكنة في اللاوعي الإنساني، بمعنى هناك رابطة روحية بين الفرد والأرض التي تربي عليها وولد. «لأنّ الأرض هي أمّ القيم في حياة الفلاح إنها جذوره ومردّه ومقره الأخير، وانبعائه حتّى أنّ علماء الأنثروبولوجيا يرون أنّ الفكرة الدينية "البعث"، مستمدة في أصلها من حياة القرية الزراعية (دفن الحبوب في الأرض شتاء لتولد، أو تقوم من الموت زهرا وثمرًا وحبوبا في الربيع والصيف)»¹⁰، بحيث وردت هنا القرية وأرضها كهوية مكتملة.

اعتمد جلاوي على علاقة الأبناء بوطنهم، ولم يترك مجالا للشك أنّ الأرض مصدر سعادة الفرد إذا كان فوقها، والعكس يحدث إن غادرها، فيصبح في بؤس وقهر طالما ابتعد عن أرضه وأهله، فالرواية هنا كانت وسيلة مكنت الفرد من التعبير عن موقفه نحو أرضه وقريته وحتّى أشيائه مثلما لمسناه عند "محمد" في خوفه من الغيلان أن تسلب منه دميته، لهذا يقول بحراوي: «يمكن للرواية أن تحول المكان أداة التعبير عن موقف الأبطال من العالم»¹¹، هذا العالم الذي لا يساوي عند الطفل "محمد" ولو شبرا من قريته التي خلفه بين يدي الغيلان، فالقرية، المكان، لا يمكن مقارنتها بأي مكان مهما بلغت رفاهيته وأريحته، هذا المكان الذي يزيح صورة العالم كلية لأنّه يحمل صور الأهل وذكرياتهم، لحظات بين العائلة والأهل وغيرها من مواقف أبت الإنمحاء

في ذاكرة سكان هذه القرية. غير أنّ النفس أغلى والابتعاد مفروض لا مفر منه، فالغيلان قد استولت على الأرض وقتلت الأهل وشردت الأطفال، التشرّد الذي أصبح مفروضاً على محمد وأخته، يقول: «لا بد أن أرحل عن هذه القرية ليس من اللائق أن أبقى أطول مما بقيت سيكون هذا المكان محج الوحوش المفترسة...»¹²، وإن بقي سيكون لقمة سهلة المضغ عند الغيلان.

3.1 البيت :

يعتبر البيت مكاناً آخر يلجأ إليه الإنسان في كلّ حالاته، وإن كانت حالات الضعف من تعب أو خوف هي الحالات الأكثر إلحاحاً على طلب البيت أو المنزل، فهو الملجأ الذي لا يمكن أن يستغني عنه الفرد، إذ هو المكان الأول للإنسان، والبيت هو الفضاء المصغر الذي يحتمي به كلما شعر بالخطر مثلما رأيناه مع الطفل محمد في بداية الرواية وهو يفر من العدو متجهاً إلى مقره الآمن يقول: «... خزائن... طاولات... أسرة... سيتصدى لهم أبي... سيقتلهم... يقتلهم جميعاً»¹³. فهنا لم يكتف محمد بالاحتماء ببيته كما أضاف إليه كلّ ما يحمله من متاع وأثاث.

تسير أحداث عز الدين جلاوجي على هذا النحو في الرواية فيتخذ "الطفل البطل" منزله ملجأً ومحبباً له من "الغيلان" التي تريد انتزاع دميته، والمنزل هو جزء من الأرض الذي يعتبر مكاناً للأمن والطمأنينة يقول: «سألج الباب قبلهم... سأغلقه خلفهم... سأضع عليه كلّ ما في بيتنا من متاع ثقيل»¹⁴، فبعد أرضه التي هي الكلّ يأتي البيت الذي يعتبر جزءاً من الكل، البيت الذي تركه هو الآخر مع ناسه وساكنيه الطيبين الذين سقطوا في وسطه، كل هذا بقي عالقاً في ذهن الطفل محمد، يتذكره كلما زار الحنين قلبه وقست عليه الرحلة التي أخذت عالمه الصغير نحو الحلم.

2. الرحلة: الحلم:

الطفل البطل: محمد هو شخصية شاهدة في النص الروائي، فرمز جلاوي إلى الأطفال بالفراشات وهو رمز على النقاء والتحليق عاليا في سماء الحرية، بينما رمز إلى جنود الصرب بالغيلان وهي جمع الغول والتي تعني الجنّ أو الشياطين وهي دلالة على التوحش والخوف. لكن يبقى الحلم يراود ذهنهم هو وأخته الصغيرة التي لا تعرف من الحياة سواه وصديقه الذي فقد هو الآخر عائلته.

هذا الحلم الذي أيقظته الرحلة نحو المجهول وجمعت بين الناس فألفت بينهم بالحبّة والأخوة وصاروا عائلة واحدة، لعلها تكون رحلة ولمّ شملهم مع من شردوا بعد الهجمة، هذه الرحلة التي كانت مفروضة لترك الديار والأرض وكلّ ذكرى. لكن تبقى غربة القلب بفقدان الأهل والابتعاد عن الديار لا شفاء لها، يقول ابن محمدي الشاعر الموريتاني: «آه لمغترب في الغرب ليس له*** جنس وإن كان محفّوفا بأجناس»، فرغم الحياة السوية التي حاول البلد المستقبل توفيرها تبقى غصة الوطن تنخر عقل الأهل، فلا بديل عن الأرض الأم التي نبتوا عليها وكبروا، إنها رمز الهوية والانتماء والاعتزاز.

3. خاتمة:

تعتبر الأرض الملجأ الأصلي والحضن الدافئ للفرد، فمهما تعددت أسباب الرحيل ومهما توفرت سبل الراحة والرفاهية تبقى الرض المنبت الأول والأخير للفرد، وهي رمز من رموز الهوية، لهذا فالعودة إلى الأصل من الأمور التي تشبه الحلم عند الأفراد المغتربين عنها إراديا أم قسريا، وكلّ استبعاد عنها شبيه بإطفاء الشمعة ببطء فلا الحلم في العودة تركه ولا اليأس تمكن منه، فيعيش الفرد حياته مرميا بين الحلم بالعودة إلى أرضه ومنبته ومسقط رأسه، وبين الاغتراب والاستبعاد، هذا الأخير الذي يقتل كلّ ما تبقى منه من أمل في العودة إلى أرضه ودياره واحتضان ذكرياته مع أهله، لهذا كلّ استبعاد يمثل طعن في حقّ النفس والفؤاد، فالأرض والأهل لا بديل لهما مهما تعددت الأسباب وكثرت المغريات.

4. المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم.
2. عز الدين جلاوي، الفراشات والغيلان، دار المنتهي للطباعة والمنشر والتوزيع، ط4، الجزائر، 2015.
3. حسين بحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصيات) المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 1990.
4. مرسيا الياد، الاساطير والأحلام، تر حسيب كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة، دط، سوريا، 2004.
5. <https://www.alitigad44.com/archive/10984>، محمد الحاج، الإنسان والأرض، الجمعة 2014/01/10
شعراء مجهولون. <https://poetsgate.com/poem.php?pm=201067> بوابة الشعراء، حمد الحجري، 2005.

الهوامش:

- 1 - البقرة آية 22.
- 2 - سورة الملك، آية 15.
- 3 - محمد الحاج، الإنسان ، <https://www.alitigad44.com/archive/10984> - الجمعة 2014/01/10 والأرض،
- 4 - عز الدين جلاوي، الفراشات والغيلان، دار المنتهي للطباعة والمنشر والتوزيع، ط4، الجزائر، 2015، ص26.
- 5 - مرسيا الياد، الاساطير والأحلام، تر حسيب كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة، دط، سوريا، 2004، ص 263.
- 6 - الرواية 30-31.
- 7 - الرواية، ص43.
- 8 - شعراء مجهولون. <https://poetsgate.com/poem.php?pm=201067> بوابة الشعراء، حمد الحجري، 2005.
- 9 - الرواية، ص35.
- 10 - الأخضر بركة، الريف في الشعر العربي الحديث، قراءة شعرية المكان، ص24.
- 11 - حسين بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص 70.

12 - الرواية ص19.

13 - عز الدين جلاوجي، الفراشات والغيلان، ص9-10.

14 - عز الدين جلاوجي، الفراشات والغيلان، ص9.